مقدمة

بسم الله ، والحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وبعد ،

فمنذ عام ١٩٧٦م ، وهو العام الذي فرغت فيه من رسالتي للدكتوراه ، بعنوان : « مصرف التنمية الإسلامي » ، المكتوبة أصلاً بالفرنسية ، والمقدمة إلى جامعة رين بفرنسا ، وأنا أحاول أن أكتب في الاقتصاد الإسلامي ، وفي الفقه المالي ، وأن أشارك في المجامع والمؤتمرات والندوات ، بطريقة تحليلية وانتقادية .

حاولت في هذا الكتاب أن أجمع بحوثي ومقالاتي التي كتبتها منذ ذلك العام وحتى تاريخه . وليس هذا كل ما كتبت في الاقتصاد الإسلامي ، فهناك كتابي « أصول الاقتصاد الإسلامي » ، وكتبي الأخرى في المصارف الإسلامية ، وفي قضايا ومسائل أفردتها بكتب أخرى مستقلة .

في هذا الكتاب يجد القارئ بحوثاً ومقالات اعتمدت عليها في تأليف بعض الكتب ، أو كانت شرحاً وتطويراً لما سبق أن كتبته . فإذا وجد القارئ شيئاً لم يفهمه فأرجو أن يفهمه من خلال كتاباتي الأخرى ، التي أرجو أن يشرح بعضها بعضاً .

وثمة اقتصاديون وفقهاء يسهمون معاً في الكتابة في مجال الاقتصاد الإسلامي ، والكتابات الجادة قليلة ، فما يكتبه الفقهاء معظمه يندرج في الحيل الفقهية ، التي لا تضيف إلى معارفنا شيئاً ، بل قد تؤدي في الكثير من الأحيان إلى تشويه صورة الإسلام والمسلمين .

وهناك من يشجعهم على هذا الاتجاه ، ويستدرجهم إليه ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً .

وما يكتبه الاقتصاديون معظمه يندرج في أنواع أخرى من الحيل ، فإنهم ينتقون كتابات غربية من هنا وهناك ، وقد ينسبونها إلى أنفسهم ، أو إلى نظامهم الاقتصادي ، من دون تعمق ولا فحص ولا تمحيص .

إن الإضافة العلمية ، في الاقتصاد الإسلامي ، تحتاج إلى مجتهدين في العلوم الإسلامية ، ومجتهدين في العلوم الاقتصادية . وأغلب الدارسين والباحثين هم مقلدون ، وعند الاجتهاد يتبين الفاهم من غير الفاهم ، والقادر من العاجز .

إن محاولة الاجتهاد في الاقتصاد الإسلامي لا تنفع الاقتصاد الإسلامي فحسب ، بل تنفع أيضاً سائر العلوم الإسلامية ، لأنها تفتح باب التفكير والتعبير في دروب غير مطروقة ، وتمهد الطريق لاستعادة التقدم والمشاركة في صنع القرار والحضارة .

رفيق يونس المصري

كافحوا الربا[1]

إذا كنا مضطرين إلىٰ مزيد من العمل من أجل مزيد من الاستهلاك ، وإذا كنا مضطرين إلىٰ الاقتراض من أجل مزيد من الإنفاق ، فمعنىٰ ذلك أن النقد قد أصبح سيداً ، وأننا قد أصبحنا عبيداً له . نعم! لقد أصبح سيد الإنسان ، ليس هذا فحسب ، بل لقد أصبح سيد الدولة .

أجل! ما فتىء رأس المال النقدي منذ عشرين سنة يمدّ سيطرته علىٰ الاقتصاد . فمع تركز المشروعات واندماجها والتلاعب في البورصات (المصافق) . . . تشكل اقتصاد المجموعات ، وصارت المجموعة تمتلك مئات المشروعات ، وتتحكم أحياناً بقطاعات كاملة ، ووقع هذا الاقتصاد فريسة المصارف الضخمة . . . وبدا الخلاف ظاهرياً مصطنعاً بين أنصار « اقتصاد الحرية » المزعوم وأتباع « المذاهب الجماعية » ، فإن مجموعات الرأسماليين هي التي قضت علىٰ المنافسة عن طريق التكتلات الاحتكارية التي تسعىٰ إليها ، وأن مجموعات الرأسماليين هي التي أجهزت علىٰ الحرية الاقتصادية باقتناصها فرص العمل المربح . وبدت بهذا لا تدافع عن « اقتصاد السوق » كما يزعمون ، بل تدافع عن مصالحها وتحمي هيمنتها .

---

(١) منشور في مجلة الأمان ، بيروت ، العدد ٢٣ ، شعبان ١٣٩٩هـ = تموز ١٩٧٩م ، ص٢٤ ـ ٢٥ عن صحيفة لوموند الفرنسية ٩ حزيران ١٩٧٩ . برتراند رونوفانBertrand RENOUVIN هو المدير السياسي لـ Royaliste الناطق بلسان Nouvelle action francaise .

أفنرضىٰ بهذا ، معتقدين أن غيره لا بد أن يكون أسوأ ؟ كان يمكن التسليم بهذا الاعتقاد في العقد الثاني من القرن العشرين ، عندما كانت الرأسمالية لا تزال تسهم في تنمية منطقة أو أمة بكاملها . أما اليوم فلم تعد النقود تهتم بالمناطق ولا بالأمم ، فضلاً عن أن تهتم بالإنسان الذي ما ا تستغله .

إن النقود تطوف في كل مكان من العالم ، وتجري وراء كل نشاط اقتصادي . . . وكل ما يهمها هو أن تتكاثر . إنها شيء مغفل يكبر وينمو حسب قوانين لا نتحكم بها . إنها خادم أعمىٰ لإرادة في السيطرة هي أكثر عمىٰ أيضاً وأضل سبيلاً . هذا لعمري نظام مجرد لم نعد نميز إلا آثاره : خراب من الشركات العابرة للقوميات (المتعددة الجنسيات) ، خراب في الضمائر والذمم ، رشوة ، تضخم ، مضاربة (تلاعب بالأسعار) ، تفكك في المدنيات التي راحت تسيطر عليها النقود . . .

ما الحل ؟

إن تأميم الإقطاعيات الصناعية ومصارف الأعمال لا بد منه لكسر شوكة النفوذ المالي ، ولإعادة المشروعات إلىٰ أصحابها الشرعيين ، إلىٰ مجموع الأمة . لكن التأميمات في ظل الظروف الراهنة لا بد وأن تؤدي إلىٰ نفوذ آخر ، هو نفوذ الحكومة وأشياعها . لذا تبدو الإدارة (عملية التسيير) الذاتية لازمة لتحقيق الملكية الجماعية لرأس المال ونهوض العاملين بالمسؤوليات[1] . ولا بد لمواجهة منطق المنافسة المتوحشة ، وما

---

(١) في هذا المقال يحمل الكاتب علىٰ النظام الربوي كما هو ظاهر مما تقدم من كلامه ، وهو هنا يقترح حلاً بديلاً . وإذا كان المسلمون يشاطرونه حملته علىٰ الربا فإنما لا يشترط أن يوافقوه في حلوله البديلة . المترجم .

يتخلف عنها من بطالة، من حماية الاقتصاد الوطني ، دون أن تعني هذه الحماية انطواء علىٰ الذات . . .

عند ذلك لا تعود النقود سيدة الاقتصاد ، إلا أنها تبقىٰ سيدة حياة الناس ما لم تتحطم آلية تكاثرها . إن ما تثور الشبهات حوله هو « القرض بفائدة » ، وما يجب تحطيمه هو الربا .

فكيف نقبل أن « يصنع » النقد نقداً ؟! كيف نرضىٰ أن « يعمل » النقد كما يقولون ؟! كيف نسمح لمن ينتفعون بفوائد قروضهم بأن لا يعملوا؟!

إن الاقتصاديين المعاصرين ، وخصوصاً كينز ، يقدمون الفائدة علىٰ أنها « مكافأة التخلي عن السيولة » . لكن ألا تكفي تلك المكافأة التي يجنيها المقرض من الحفاظ علىٰ رأس ماله كما هو مضموناً في ذمة المقترض ، ولو بقي عنده (عند المقرض) لربما ضاع ؟! ألا يكفيه أن رأس ماله لا يصيبه الاهتلاك خلال فترة القرض ، مع أن الاهتلاك يصيب كل الأشياء ؟! لماذا ينبغي فوق ذلك أن تدفع له قيمة فترة ذلك « التخلي » ؟!

قد يحسب بعضهم أن غرضنا هو منع الادخار اللازم للاستثمار . لا علىٰ العكس ، إننا نأسف لأن الادخار يأكله التضخم ، بينما تتمتع مؤسسات الائتمان بسلطة تكفي لكي تفرض علىٰ المقترضين فوائد تبلغ ضعف الفوائد الممنوحة للتوظيفات! أجل إن حماية قيمة المدخرات أول إجراء ضروري من إجراءات العدالة[1] . بل إن هذا لا يكفي وينبغي

---

(١) أجاز المسلمون وفاء القرض ، إذا كان ممنوحاً بالفلوس أو الأوراق النقدية (أي بغير الذهب والفضة : الدنانير والدراهم) ، بقيمته وقت المنح لا وقت الوفاء (أي رد القيمة لا المثل) ، وهذا هو المقصود في المقال من قول الكاتب « حماية قيمة المدخرات » ، وهو ما يعرف لدىٰ الاقتصاديين بـ « ربط القروض » indexation وربما عدنا إلى تفصيل هذا الموضوع الفقهي ـ الاقتصادي في بحث لاحق . المترجم .

الذهاب لما وراء ذلك ، يجب تحريم الربا ، أي يجب تحريم النفع الذي تجره القروض[1] ، النفع الذي يسمح للنظام المصرفي بتشغيل النقد المسروق لدىٰ المقترضين دون أي نفع للجماعة .

أليس غريباً أن « اليسار » لم يعر أي اهتمام لهذه المسألة ؟! أليس غريباً أن الكنيسة قد نسيت تحريمها القديم للنشاطات الربوية ؟! مع أن تحريم الربا إنما يعدّ ثورة علىٰ صعيدين :

- فهو يحيي قاعدة قديمة من قواعد العدالة .
- كما يحطم نظاماً أساسه السرقة!

* * *

(١) عبارة الكاتب هنا قريبة جداً من الحديث الشريف : « كل قرض جر نفعاً (أو منفعة) فهو ربا » ، قال في سبل السلام : رواه الحارث بن أبي أسامة ، وإسناده ساقط ، لأن في إسناده سوار بن مصعب الهمداني المؤذن الأعمىٰ وهو متروك ، وله شاهد ضعيف عن فضالة بن عبيد عند البيهقي . . . إلخ ما جاء في سبل السلام ٣/ ٥٣ . أقول : البناء اللفظي للحديث لعله غير محكم ، لأن القرض قد يجر نفعاً ، ويكون النفع رباً حلالاً ، لأنه غير مشروط ، والله أعلم .

لا اقتصاد بلا دِين[1]

نشرت « الإكسبريس » الفرنسية في عددها ١٤٩٠ تاريخ ٢ شباط ١٩٨٠ ص ٩٢ في باب « الكتب » مقالة بعنوان « الرأسمالية المريضة بالشهوة »le capitalisme malade du plaisir تتحدث عن كتاب صدر مؤخراً بالفرنسية بعنوان « التناقضات الثقافية للرأسمالية » Les Contradictions culturelles du Capitalisme لمؤلفه « دانييل بل » daniel bell ، ترجمته إلىٰ الفرنسية « ماري ماتينيون Marie Matignon » ، نشر P. U . F (مطابع فرنسا الجامعية) ، ٢٩٢ صفحة .

* * *

جاء في المقال أن الرأسمالية ولدت من الزواج بين « البيوريتانية » (الطُّهْرِيَّة) Puritanisme[2] و« الليبرالية » Libéralisme ، وكبرت بـ « المُتَعِيَّة » Hédonisme[3] . واليوم يرىٰ « دانييل بل » عالم الاجتماع

---

(١) أو إن شئت : لا اقتصاد بلا أخلاق ، ولا أخلاق بلا دِين ، ولا دين بلا إسلام ، ﴿إن الدينَ عند الله الإسلام﴾ ، ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾ ، ﴿ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ .
منشور في مجلة الأمان، بيروت، العدد ٥٤، ٢٩ ربيع الأول ١٤٠٠هـ =١٥شباط ١٩٨٠م، ص ٢٥ـ٢٧ .

(٢) مذهب جماعة بروتستانتية في إنجلترا ونيوانجلاند في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، يطالب بالتمسك الحرفي الشديد بأهداب الدين والأخلاق الفاضلة .

(٣) مذهب المتعة القائل بأن اللذة والسعادة هما الخير الوحيد أو الرئيسي في الحياة ، وبأن كل نشاط اقتصادي يجب أن يقوم علىٰ إرضاء غرائز الناس وتحقيق أقصىٰ ما يمكن من رغباتهم وشهواتهم وملذاتهم .

الأمريكي أن بقاء النظام الرأسمالي مرهون بعقد قران جديد بين « الأخلاق » و« الاقتصاد » .

* * *

الرأسمالية ضحيةُ تناقضاتها الداخلية ، والمدنية الغربية يتيمةُ قيمها الأخلاقية : هذان شعاران لا يستغملان معاً حتىٰ في حملات الانتخابات . . . ذلك بأن كل شعار يرفع مفصولاً عن الآخر ، لأن الذين يعلنون عن « الأزمة الاقتصادية » هم غير الذين يتململون من « الأزمة الأخلاقية » .

ما فعله « دانييل بل » في « التناقضات الثقافية[1] للرأسمالية » هو أنَّه ربط بين الشعارين وألَّف بينهما . فقد رأىٰ أن التناقض الأساسي لدىٰ الغرب أنه ضَيَّع أخلاقيات اقتصاده ، وعجز عن صنع الاقتصاد من

---

(١) الثقافة culture هنا بمعنىٰ الحضارة أو مرحلةٍ معينة من مراحل التقدم الحضاري ، أو هي مجموعة المعارف المكتسبة التي تتيح تنمية الحس النقدي والذوقي والتقويمي ، فالثقافة بهذا المعنىٰ « هو ما يبقىٰ في ذهنك عندما تنسىٰ كل شيء » (قول لأحد المربين اليابانيين ، ذكره ادوار هريو Edouard Herriot) . أو هي مجموعة من المظاهر الفكرية في مَدَنِيَّة معينة ، فيقال : ثقافة غربية ، شرقية ، عربية ، فرنسية . . . إلخ . ويبدو أن الترجمة العربية بهذا اللفظ للتعبير الفرنسي أو الإنجليزي إنما هي مقبولة . فيقال : ثَقِف (بفتح فكسر) : صار حاذقاً فَطِناً . وثقف العلمَ والصناعةَ : حَذَقهما (بفتح الذال) . وثقف الرجل في الحرب : أدركه . وثقف الشيءَ : ظفر به . وثاقفه : لاعبه إظهاراً للمهارة والحذق . وثقف الشيء : أقام المعوجَّ منه وسوَّاه ، والتثقيف : التسوية . وثقَّف الإنسانَ : أدَّبه وهذَّبه وعلَّمه . وغلام لَقِن ثَقِف (بكسر الثاني في النَّعْتَيْن) : أي ذو فطنة وذكاء ، والمراد أنه ثابت المعرفة بما يحتاج إليه . والثقافة : هي العلوم والمعارف والفنون التي يطلب الحذق فيها . راجع اللسان والوسيط . كل هذه المعاني ترشح اللفظ لصلاحيته اللغوية في التعبير عن المناسبة المطلوبة .

الأخلاق . وليس سهلاً التخلص من شرَك هذا الفخ الكبير لتجاوز المجتمع الصناعي وإعلان ميلاد « المجتمع ما بعد الصناعي » .

أمام « الثقافة » و« الاقتصاد » يتساءل الكاتب : أين العلة والمعلول ؟ ثم يقول : ليست الإجابة عن هذا السؤال بأسهل من أن تجيب عن ما إذا كانت الدجاجة أولاً أم البيضة ؟

في الرأسمالية يعترف المؤرخون بالدور الحاسم ، لكن لا المطلق ، الذي لعبته « البروتستانتية » ؛ ويرىٰ المؤلف أن « النظام الأخلاقي » ordre moral و« النظام الاقتصادي » ordre économique يتصالحان تماماً بحيث إن « المجتمع الصناعي » الوليد يجد المهد مُهَيَّأً كلياً ، وأن هذه المصالحة التي هي عجيبة بقدر ما هي عابرة إنما تبدو طبيعية . فلئن كان « بل » يثير اليوم قضية الطلاق بين الاقتصاد والخلق ، فإنما يفعل ذلك بغية إيجاد وفاق جديد يجب أن نرضىٰ به ونقتنع مهما كان الثمن .

التنمية الاقتصادية لا يمكن أن تتم إلا بـ « الزهد » ascétisme (التقشف) الذي هو الحل الوحيد للمصالحة بين مستوىٰ ضعيف من الإنتاج ومعدل كبير من الاستثمار . في هذا الوضع الصعب تبدو الأخلاق الطُّهْرِيَّة morale puritaine هرموناً للنمو عجيباً . ذلك لأنها من ناحية تدعو إلىٰ الادخار والإمساك (= الصيام) abstinence والاعتدال في الإنفاق الاستهلاكي frugalité ، ومن ناحية أخرىٰ تعلي من شأن المبادرة الفردية ، والعمل ، والنجاح المادي .

وبهذا يصبح « الطُّهْري » puritain « الإنسان الاقتصادي » homo economicus الكامل ، ذلك الإنسان الذي يتكيف عفوياً في سلوكه مع متطلبات الاقتصاد .

ويعرض المؤلف لما طرأ علىٰ النظام الرأسمالي من هزات ثقافية ،

وفنية ، واقتصادية . ففي نهاية القرن التاسع عشر توطدت الثقافة المعاصرة ، وهي ثائرة علىٰ النظام الأخلاقي ، متمردة في إمعانها بالتجاوز والتعدي .

كما لعب التقدم الفني بكافة أوجهه في الاتجاه نفسه ، إذ الإنتاج الكبير والكهرباء وفّرا للناس الراحة . . . والسينما ثم التلفزيون غذّيا الأوهام والخيالات وقضيا علىٰ المحرمات . . والآلات الحديثة كانت سيئة التلاؤم جداً مع صلابة (عزم) الرأسماليين الأوائل .

غير أن الهجمة المخيفة علىٰ الأخلاق البروتستانتية شنّتها الرأسمالية نفسها . فمنذ عام ١٩٢٠ غيرت هذه الرأسمالية وجهها تماماً ، وذلك مع تطور الإنتاج النمطي والدعاية والائتمان . فصارت الدعوة إلىٰ الاستهلاك ، لا الادخار ، وإلىٰ إرضاء الرغبات ، لا الحاجات فقط . وتم الانتقال من « الزهد » إلىٰ « الترف »[1] . وختم الاقتصاد طور إقلاعه ، وكان عليه لمتابعة تطوره أن يفتح السوق ، أي أن يعدل عن القصد في الإنفاق وعن الإقراض إلىٰ المتعة والاقتراض .

وباتت « الرأسمالية الجديدة » مثقلة بالتناقضات ، ذلك أنها إذا كانت تدفع المستهلك إلىٰ الإسراف ، فهي إنما تبقي العامل في أخلاق الطهر ، إذ لا يمكن بخس العمل قيمته في أنه ينبوع الثروة . ويرمز الكاتب إلىٰ هذا التناقض في صورة طريفة قائلاً بأنه « ينبغي أن تكون واعياً في النهار ماجناً في الليل »!

---

(١) يقول الاقتصادي الفرنسي الكبير « فرانسوا بيرو » François Perroux في تصور رمزي لحالة المجتمع الاستهلاكي : « إن الفرد يقوده عن بُعدٍ ذلك المنتج الذي لم يعد يعبأ بإشباع الحاجات والتطلعات ، بل صارت مهمته تشغيل آلة الإنفاق لدىٰ ذلك الفرد » .

انظر « التنمية الاقتصادية والارتقاء الاجتماعي » في مجلة « مشكلات اقتصادية » الفرنسية ، العدد ١٦٥٠ تاريخ ٥/١٢/١٩٧٩م ، ص١٠

من المحتمل في نظر المؤلف أن الإفلاس و بطالة كعقوبات قاسية تفعل فعلها أكثر من فضائل الطهرية لإبقاء كل واحد علىٰ صراط الأرثوذكسية الرأسمالية (الرشاد الرأسمالي)!

ويختم « فرانسوا دو كلوزيه »François de Closets ، الفرنسي الذي يقدم عرض الكتاب الأمريكي ، بأن تاريخ العلاقات بين الأخلاق والاقتصاد يختلف في فرنسا عنه في أمريكا . فالتقليد في فرنسا ، كما يقول هو ، كاثوليكي وليس بروتستانتياً . وما أكثر ما قيل بأن اختيار معارضة الإصلاح الديني ، في القرن السادس عشر ، قد كان من شأنه تأخير التنمية الصناعية في فرنسا!

وعلىٰ الرغم من فروق المسافة بين فرنسا وأمريكا ، من السهل أن يطبق علىٰ فرنسا ما توصل إليه « بل » من نتائج . ففي فرنسا كما في أمريكا يحتاج المجتمع البورجوازي احتياجاً كبيراً إلىٰ الأخلاق لتعزيز اقتصاده قبل أن تعصف به العواصف . . .

* * *

وأخيراً يبدو أن ملخص الكتاب هو الدعوة إلىٰ إعادة المواءمة بين الاقتصاد والدين ، لأن الدين لا غنىٰ عنه في الاقتصاد أيضاً ، وذلك للتوفيق بين جميع الجوانب والعناصر التي تشكل ثقافة أمة معينة . وإذا كان التطور العلمي يستحث الغربيين علىٰ العودة إلىٰ « تديين » الاقتصاد ، تحت وطأة التناقضات والاضطرابات والأزمات المختلفة ، فما أحرانا نحن المسلمين بتحقيق الانسجام بين الاقتصاد والدين ، لا سيما وأن عاقلاً لم يقل بأن الإسلام ، في فهمه الصحيح ، غير موافق للتنمية الإنسانية والاقتصادية والاجتماعية .

يؤكد ذلك « جاك أوستروي »Jacques Austruy في كتابه « موقف الإسلام

من التنمية الاقتصادية » l' Islam face au développement économique (ص ١٠٠) حيث يقول : « يبدو لنا جوهرياً أن نبين في الحال أن التنمية الاقتصادية في البلاد الإسلامية لا يمكن في نظرنا أن تتم إلا إذا وضعت في الاتجاه التقدمي هذه القوة الحيوية الهائلة : القرآن » . « إن المسلمين لا يقبلون بـ« اقتصاد علماني » (ص ١١٩) . « ولا شك أن الاقتصاد الذي يستمد قوته من أوامر القرآن لا بد أن يكون بالضرورة اقتصاداً أخلاقياً . وهذا الاقتصاد يمكن أن يعطي مدلولاً جديداً لمفهوم القيمة ، وأن يملأ الفراغ الروحي الذي يحتمل أن تحدثه مكننة الحياة » . « لقد شجب برغسنBergson الآثار المشؤومة لنمو مَدَنيَّة « الشهوة » في الغرب . والاقتصاديون اليوم هم القلقون من سيطرة القيم « المرغوبة » علىٰ القيم الحقيقية » .

« ولقد رأىٰ جاك برك Jacques Berque أن هذا الجمع بين الاقتصاد والروح يذكّر بحالات أخرىٰ مشابهة طالما جرىٰ الحديث عنها ، مثل دور البروتستانتية عند نشوء الرأسمالية الصناعية ، ودور « البيوريتانية » في بداية قيام الولايات المتحدة الأمريكية ، إلخ » . ثم يقول أوستروي « إن هذا الالتقاء بين « الأخلاقي » و« الاقتصادي » الذي يلحّ عليه ج . برك ليس مصادفة في هذا الإسلام الذي لا يعرف الفصل بين « الزمني » و« الروحي » . ربما يكون اقتران البروتستانتية بالنهضة الصناعية اقتراناً اتفاقياً عرضياً ، والعلاقة بينهما موضع نقاش ، إلا أن الأمر في الإسلام مختلف ، حيث سلطان الشريعة علىٰ النفوس يمنع كل تنمية اقتصادية لا تستند إلىٰ هذه الشريعة » . « وإذا كانت الفاعلية المادية لدىٰ الغرب قد دخلت عن طريق الفصل بين الروحي والزمني ، فإن الفاعلية لدىٰ المسلمين لا يمكن أن تلد إلىٰ جانب الميدان الروحي (أو ضده) ، بل تلد بالاستلهام من سلطان الوحي نفسه » . « ويؤكد معظم المفكرين

المسلمين المعاصرين ، كما يقول أوستروي ، أن الإسلام عبارة عن طريقة كاملة للحياة أوun mode total de vie a total way of life ، ومبادئه الأساسية المودعة في القرآن والحديث لا بد من تطبيقها مهما اختلفت الأمكنة والأزمنة والظروف » . « لم يعرف الغرب أن يسد الفراغ الاجتماعي ـ الثقافي الذي خلقه بهدم التوازنات السابقة ، وهذا أكبر خطأ ارتكبه في التاريخ ، ذلك لأن هذه الشعوب الكادحة كان لابد لها من أن تتطلع إلىٰ أنظمة أخرىٰ « تنشد منها الحكمة التي لم تعد تعتقد بوجودها في الأسواق الغربية » حسب عبارة « غوغول » Gogol القاسية » .

« إن إعطاء مضمون للزمن الاجتماعي إذا ما استردَّ قيمته ، واجتناب مشكلات البطالة الشرهة (أي العاطلين الشرهين) للألعاب الفارغة . . . ذلكم بلا شك غاية من الغايات الهامة التي يمكن أن يسعىٰ إليها اقتصاد أخلاقي » .

« في المجتمعات الغربية حُلَّتْ إلىٰ حد كبير مشكلة الخبز ، لكن القلق ما فتىء يزداد أمام مشكلة الألعاب[1] . إن مشكلة التسلية (اللهو) التي سبق أن أقلقت « باسكال » يمكن حلها إذا ما تحولت التسلية إلىٰ خدمة القيم الاقتصادية ـ الاجتماعية » .

* * *

وهكذا فإن الاقتصاد في الإسلام جزء من الدين نفسه ، ولا بد أن

---

(١) يؤمنون بالدنيا وقلَّما يؤمنون بالآخرة : ﴿ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴾ [الأنعام : ٢٩] . والله تعالىٰ يقول : ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٦٤] ﴿ إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ ﴾ [محمد : ٣٦] . ويقول : ﴿ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٢] .

يكون مسايراً لتعاليمه وأحكامه ، كما أن التنمية والإسلام أمران متلازمان . . .

فالإسلام يدعونا إلىٰ الاعتدال في الاستهلاك : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء : ٢٩] . ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان : ٦٧] . ﴿ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأنعام : ١٤١] .

والإسلام يمنعنا من الاكتناز : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [التوبة ٣٤ـ٣٥] .

ويحرم علينا الربا ويحل لنا البيع : ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٧٥ـ٢٧٩] .

ويمنعنا من الرشوة وأكل أموال الناس بالباطل ، ويطلب إلينا تحقيق التراضي في المعاملات : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾ [النساء : ٢٩] ﴿ وَلَا

﴿تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة : ١٨٨] .

ودعا الإسلام إلىٰ العمل والإحسان فيه : ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة : ١٠٥] . ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف : ٣٠] .

ودعا إلىٰ المبادرة الفردية ، وأخذ بمبدأ المسؤولية الفردية ، حتىٰ يتنافس الناس في التسابق إلىٰ الخيرات والصالحات ، دون أن ينتظر كل منهم الآخر : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة : ١٠٥] .

ودعا إلىٰ الأخذ بأسباب القوة المادية : ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال : ٦٠] . ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ [النساء : ٧١] . ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ﴾ ﴿وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ [النساء : ١٠٢] .

ونكتفي هنا بهذا القدر القليل من الآيات الواردة في القرآن لنعارض بها فقط ما مرَّ من إشارات الكاتب الأمريكي إلىٰ بعض العناصر الأخلاقية التي يريدها أساساً في تقويم المذهب الرأسمالي ، ورده إلىٰ الأخلاق ، ورد الأخلاق إليه . فكيف لو سردنا كل آيات القرآن المتعلقة بالنظام الاقتصادي الإسلامي ؟! وكيف لو استخرجنا كذلك كل الأحاديث النبوية التي لها صلة بالاقتصاد ؟! لا شك بأن الفقه الصحيح لكتاب الله وسنة رسوله كفيل ببيان الأسس الإسلامية لاقتصاد يجمع في توازن بين الإنتاج والتوزيع علىٰ أساس من العدل بين عناصر الإنتاج المختلفة ، دون خوف من طغيان فئة علىٰ أخرىٰ . وما أكبر الفرق بين نظام اقتصادي يقوم علىٰ

آداب ربانية ونظام اقتصادي يقوم علىٰ آداب تضعها فئة من البشر لتحقيق مصالحها ومآربها علىٰ حساب الآخرين! أما رأيت كيف يقول الكاتب الأمريكي « إن التقشف هو الحل الوحيد للمصالحة بين مستوىٰ ضعيف من الإنتاج ومعدل كبير من الاستثمار » ؟! ألا تشعر من هذا الكلام أن التقشف يطلبه من العاملين الذين لا يملكون لتزيد استثمارات المالكين الرأسماليين ؟ كم من تاجر أو رأسمالي يطالب في كثير من البلدان ، حتىٰ الإسلامية في عصرنا هذا ، بأن يكون هامش ربحه كبيراً بدعوىٰ الحفاظ علىٰ مستوىٰ عال من الاستثمارات الجديدة والإضافية ، ولو أضرَّ ذلك بالمستهلكين برفع الأسعار عليهم ، وبالعمال بتخفيض أجورهم!

اللهم وفق المسلمين إلىٰ بناء اقتصاد إسلامي عادل يحقق التوازن والعدالة بين كل الأطراف ، ويجعلهم شركاء في ثمرات الإنتاج . لهذا لا بد من إخضاع الاقتصاد للدين ، بل لا بد من إخضاع كل العلوم وفروع المعرفة للدين باعتباره أصلاً لها يجمع شتاتها ويركب بينها في كل شامل ومنسق ، كي لا تزلَّ في منطلقاتها أو مساراتها أو نتائجها أو آثارها أو تطبيقاتها . . . إن انفلات العلم من الدين كارثة كبيرة علىٰ العلم والبشرية التي لا غنىٰ لها بطبعها وفطرتها عن كل منهما .

التوازن والعدالة والإنتاج والعمل والنشاط والثقة والاستقرار والأمن والسلام والرفاه والازدهار . . . كل ذلك مرهون بالإيمان بالله والاستقامة علىٰ طريقه :

﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه : ١٢٣-١٢٤] .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى

ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت : ٣٠-٣٣] .

* * *